جبريل يسأل ورسول الله يجيب

للأستاذ محمود شلبي

« . . . قال فأخبرني عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت . . . . » .

(أخرجه مسلم)

يسأله جبريل عليه السلام : فأخبرني عن الإيمان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله .

وهنا نقف وجهاً لوجه مع إحدى المشكلات الإسلامية الكبرى.

هل الإسلام شيء والإيمان شيء آخر ؟ .

فمن قائل أنهما بمعنى واحد ، ولهم في ذلك نصوص ونصوص ، ومن قائل أنهما شيئان متغايران ، ومن قائل أنهما يتلازمان حينا ويفترقان حينا ، ومن قائل أن الإسلام هو الانقياد الظاهري ، والإيمان هو الانقياد الباطني .

وعندي أن ذلك كله يشير إلى الموضوع من زاوية ويغمض عينيه عن بقية الزوايا .

والحقيقة لا تسطع مشرقة إلا إذا أحطت بها علماً من جميع جوانبها .

إنك إذاً من العالمين بها .

ومالنا نحن وهذا الذي يقوله الناس ، أيا كان متمامهم من العلم أو الفقه أو الفلسفات ! .

ومالنا ندع الإشراق النبوي ، والحلاوة القدسية ، التي تترقرق من النبع الإلهي صافية خالية دانية قطوفها ، ونغرق أنفسنا في حدود وسدود وقيود من مفاهيم الناس ؟ .

إن رسولنا الذي أرسله الله إلينا عرف الإسلام تعريفاً جامعاً مانعاً ، فلما جاءه جبريل يسأله عن الإيمان ، عرف الإيمان تعريفاً متبايناً للإسلام.

إذاً هذا شيء وذلك شيء .

الإسلام له حدود ومعالم ، والإيمان له حدود ومعالم كذلك .

فلننته عند قوله صلى الله عليه وسلم، ولا نقدم بين يدى الله ورسوله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله . . .

إن رأسى لتدور وتدور ، إن أنا تركتها تفكر فى ذلك المعنى .

وهل الله مما يستطاع التفكير فيه ؟

إنى لا أدرى كيف التعبير ولا ماذا يمكن أن يقال .

أن تؤمن بالله . أن تصدق بوجود الله .

هل هذا هو المعنى ؟ .

إنه يبدو تعبيراً تافهاً .

إذاً ماذا يكون المعنى ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى خلق كل شىء ليعبده ليس إلا ، فكل شىء يسبح بحمده ، فينبغى أن تؤمن أنت بوجود الله ، لأنك إن تأبيت وأنكرت ، فكل ذرة فيك تسبحه رغم أنفك ، فأولى لك ثم أولى ، أن تتجاوب مع أنغام الكون السارية فى كل شىء .

* * *

ثم يقول صلى الله عليه وسلم : وملائكته . . . إن هناك ألوانا لا حصر لها من الملائكة ، هناك حملة العرش ، وهناك ملائكة الجنة ، وملائكة النار ، وملائكة السماوات ، وملائكة القطر ، وملائكة الموت ، وملائكة النفخ ، ، وملائكة الرحمة . وملائكة العذاب ، و . . و . . و . . وما يعلم جنود ربك إلا هو . . .

الأمر إذاً شىء كبير . . .

إن هناك مخلوقات لا حصر لها غير سكان هذه الأرض من إنس وحيوان .

وكل هذه المخلوقات تسمى ملائكة ومنها ما هو أضخم من السماوات والأرض مجتمعة ، ومنها ما هو دون ذلك ، ولكل درجات عند ربه ، وما منهم إلا له مقام معلوم ، وإنهم لهم المسبحون ، وإنهم لهم الصافون .

هل هذا مما يستطاع التفكير فيه ؟.

إنه شىء فوق مدارك الإنسان المحدودة .

ولكنه حق .. إى والله حق .. وإن غاب عن حواسنا وأعيننا .

* * *

ثم يقول صلى الله عليه وسلم : وكتبه .

أصدق بالقرآن والإنجيل والتوراة وصحف إبراهيم ، مما أعلم ومما لم أعلم .

ولله كتب لم يقصصها علينا ، كما أن له سبحانه رسلا لم يقصصهم علينا ، رحمة بنا لا نسيانا ، ذلك لأن عقولنا لا تسع أكثر مما قص علينا .

ولقد ضاقت عقولنا ، وقصرت أفهامنا عن القيام بما أنزل إلينا ، فكيف يكون الحال لو أن الله حدثنا بكل شيء ، وفصل لنا كل ما حدث ؟.

لقد كان من الممكن أن يقص الله علينا قصة الرسل جميعاً ، وقصة كتبهم كلها ، وإن هذا لشيء هين على الله .

ولكن الله يعلم ضعفنا وقلة حولنا ، فأمسك عنا شيئاً وحدثنا بشيء .

أومن بكتبه جميعا ، ما قصها وما لم يقصصها .

لأنها كلها صادرة منه ، فهي كلها جاءت بحقيقة واحدة ، اختلفت طرق الأداء واتحدت غاياتها .

* * *

ثم يقول صلى الله عليه وسلم : ورسله .

من آدم عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، أومن بهم جميعا ، لأنهم جاءوني من عند ربي ، وما جاءوني إلا بما يرضني ، فكيف لا أومن بهم ؟ .

إن الله أرحم بي من والدي ، فهو إذا لا يبعث إلى إلا ما فيه خيري .

إذا ينبغي توقير الرسول ، و تعظيمه وطاعته ، أيا ما كان زمانه ومكانه وأمته التي أرسل إليها .

آدم ، نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى محمد ما هؤلاء جميعا ؟ .

إنهم الرحمة المهداة إلى البشر الضعاف الضالين ، ليأخذوا بأيديهم إلى الله .

فهم جميعاً على العين والرأس .

أمرهم أمر الله ، وطاعتهم طاعة الله ، وحبهم حب الله ، وطريقهم طريق الله .

عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

* * *

ثم يقول صلى الله عليه وسلم : واليوم الآخر .

واليوم الآخر ـ في لغة الشريعة ـ من لحظة الموت حتى يدخل الناس إما الجنة وإما النار ، ثم ما يكون لهم بعد ذلك من نعيم أو عذاب ، لا يعلم منتهاه إلا الله .

أومن باليوم الآخر ، من أوله إلى آخره .

أومن أنني في يوم ما ـ معلوم لله ـ

وساعة ما ـ مجهولة لى ـ سيأتينى الموت ، فجأة أو بغتة ، فيبهتنى ويأخذنى فلا فوت .

أومن انى سوف أموت ، وأترك كل هذه السخافات التى تشغلنى وتشغل سائر الناس .

أومن أننى سأترك أولادى وامرأتى ووالدى وأحبائى وأصدقائى ، وأنسلخ عنهم جثة ، لا تساوى شيئاً ، لو عرضت للبيع لزهدت فيها حتى الكلاب .

ذلك أنا كإنسان مادى ، أوحفنة من تراب ورماد .

أما أنا كروح كرمه الله ، فأومن أننى إن كنت مقبولا فروح وريحان وجنة نعيم ، وإن كنت مطروداً فعذاب وجحيم .

أومن بذلك ، ومتى آمنت بذلك ، هانت الدنيا فى ناظرى ، وتخلخلت القيم التى يحترمها الناس فى تفكيرى .

واتجهت بكلى إلى الله ، أحترم ما يحترم ، وأحتقر ما يحتقر ، وأحب ما يحب ، وأكره ما يكره .

أما تلك القواعد والقيم التى ابتدعها الناس ، وظنوا أنها مقدسات وقوانين ، فلا وزن لها فى تفكيرى طالما أنها لا وزن لها فى تقييم الله .

أومن بذلك كله ، وأومن أننى يوماً ما سأحمل على كواهل الرجال ، نعشاً كريه المنظر ، غبى الإخراج .

ثم أدلى فى الحفرة ، ويتولى عنى ما كنت مغروراً بهم وكانوا بى مغرورين ، حامدين الله أن تخلصوا من جيفتى التى كانت تثير الرعب فى نفوسهم وهى بالمنزل .

وأومن بحياة القبر ، إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار .

وأومن بالنفخة الأولى التى سيصعق فيها كل شىء ويهلك .

وأومن بالنفخة الثانية التى سيبعث فيها كل شىء .

وأومن انى سأحاسب ، وسوف أساق إلى الجنة أو إلى النار .

وأومن وأومن . . . بما فصله كتاب الله وسنة رسول الله .

ما هذا ؟ .

أذلك هو اليوم الآخر ؟

بلى . . . بل هذه إشارات فى اليوم الآخر وإنه لأكبر مما تظنون .

* * *

ثم يقول صلى الله عليه وسلم : ونؤمن بالقدر خيره وشره .

تلك مشكلة المشاكل ، وعقدة العقد ، فى علم البشر الضعاف ، أما فى علم الله فهى ليست شيئاً ، إنها معلومة له سبحانه ، مستقرة عنده ، ماضية فى خلقه كما أرادها .

والذين فى قلوبهم زيغ يقولون فيها أقوالا ، ويؤلفون فيها كتباً ، ويجادلون فيها جدلا .

بل لم تظفر قضية باهتمام الناس بمثل ما ظفرت به تلك القضية .

كل إنسان يفكر فيها ، وكل إنسان له رأى فيها .

لو أحصيت ما كتب عنها فى التراث الفكرى ، لرأيته ألوفاً وألوفاً من الكتب .

ولو تسمعت إلى أقوال المتجادلين فيها من آدم حتى قيام الساعة ، لسمعت ما لا حصر له من الخلق وهم يتحاورون فيها .

والأمر فعلا وحقاً أمر خطير .

ولكن هل من المستطاع الوصول إلى سر القدر ؟

هل هناك من إجابة شافية كافية على ذلك السؤال ؟

ما هو القدر ؟

القدر هو ما قدر الله على الإنسان من خير أو شر .

جميل . . . ولكن لماذا قدر لذلك الإنسان غير ما قدر لذاك ؟

لست أدرى .

جميل . . . فلماذا إذاً هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ؟

لست أدرى أيضاً .

إذاً أنت أيها الإنسان لست تدرى شيئاً ؟

هذا هو الحق . . . بل وأشد من ذلك ، إنك ستظل لا تدرى عن ذلك شيئاً .

فالخير لك أن تبتعد عما هو ليس من قبيل المعرفة الإنسانية .

إن القدر هو السياسة العليا لله - إن جاز هذا التعبير - وهو أمر يعلمه الله وحده .

ولن يسمح لغيره بعلمه .

وما ذلك إلا رحمة للعالمين .

فمن القدر - مثلا - الساعة التى تموت فيها ، أخفيت عنك رحمة بك ، ويمكنك أن تتصور حالك لو كشف لك الغطاء وعلمت متى تموت .

فلا مخرج إلا التسليم .

التسليم التام المطلق لله . . .

وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره . . .

« قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟!! »

محمود شلبى